

الحجّ في القرآن

تأليف: عبدالله جواد آملّي

يقول تعالى : إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله علي الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ١ .
صلة الآية بما سبقها:

لقد سبقت الآية اكريمة الأنفة بقوله تعالى: فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ٢ ثم جاء قوله تعالى: ان اول بيت وضع للناس. . . والذي يدلنا علي هذا الترتيب ان خطاب الآية ينصرف الي اليهود الذين كانوا يزعمون انهم علي دين إبراهيم الخليل، فجاء القرآن يحاججهم: لو أنكم علي ملة إبراهيم الخليل فعلاً وحقاً، إذا لعظمتم البناء الإبراهيمي، واتخذتموه قبلةً ومطافاً.
شبهة اهل الكتاب:

نستفيد من ظاهر الآية ايضاً انها جاءت ناظرة لشبهة كان يلقي بها اهل الكتاب علي المسلمين، ومفاد الشبهة:

أولاً: لا مجال للباطل ان ينفذ الي دين إبراهيم الخليل (عليه السلام) . لذلك لا يصح القول بالنسخ الذي يذهب اليه المسلمون واتخذوا بمقتضاه الكعبة قبلة بدلاً من بيت المقدس .
فبيت المقدس لا زال - في زعم اهل الكتاب - هو قبلة المسلمين التي يجب ان يتولوها كما كانوا يتولونها فعلاً قبل الهجرة الي المدينة، وإن تحولهم عنه الي الكعبة بذريعة النسخ لا يعدو أن يكون ضرباً من الوهم والخيال، لان النسخ لا يجوز في حكم الله!
ثانياً: لقد اتبتم باطلاً في قولكم: إن هذا السيلوك هو من دين إبراهيم؛ وفي زعمكم إن إبراهيم (عليه السلام) كان مسلماً وانكم متبعوه. فانتم اذاً اجترحتم الباطل مرتين؛ مرة حين قلتم بالنسخ؛ ومرة حين نسبتم تصرفكم في تحويل القبلة إلي إبراهيم وقلتم انكم تبع له في ذلك!

معالجة شبهة اهل الكتاب:

إن أول ما يمكن ان يقال في جواب الشبهة: انّ النسخ جائز وليس ثمة ما يدل علي استحالة.

ثم انّ الحكم الاصلّي للقبلة كان يختص بالكعبة، يقول تعالى: إنّ أول بيت وضع للناس للذي ببكة. . . فإبراهيم (عليه السلام) كان قد اضطلع بمهمة بناء الكعبة ورفع قواعدها واتخاذها قبلة ومطافاً قبل أن يقوم سليمان (عليه السلام) ببناء بيت المقدس في فلسطين.

لذا فان رجوع المسلمين الي الكعبة قبلةً وترك بيت المقدس، إنما هو عودٌ الي السيرة الابراهيمية ورجوع الي القبلة الألي التي تولّاها إبراهيم ومن اقتفي اثره من انبياء الله .
هذه الحقيقة يحدثنا بها القرآن حين يعرض سبحانه الي سيرة إبراهيم . فإبراهيم (عليه السلام) حين ترك ابنه وزوجته في ارض مكة القفرة دعا ربه: ربنا إني اسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم. . . ٣ ثم ابان (عليه السلام) مراده من ذلك بقوله: ربنا ليقيموا الصلاة ٤ فالقصد اذاً هو اقامة الصلاة في اشرف بقعة من بقاع الارض، أي ان افضل ذرية أمرت ان تقيم الصلاة في اعظم ارض.

و ((هدي)) :

انَّ مباركاً وهدياً إما ان تكون منصوبة علي الحال، وهي متعلقة ببكة فيكون المعني؛ انَّ البيت في حال البركة والهداية. وإما ان تكون ((حالاً)) للضمير ((وضع)) فيكون المعني: ((وضع مباركاً وهدياً)) أو ((للناس مباركاً وهدياً)) أو للذي ببكة مباركاً وهدياً. وما يعيننا التأكيد عليه ان جميع هذه الاحتمالات نافذة قابلة للتطبيق، لانَّ الكعبة منار هداية لجميع الناس، بحيث يستطيع البشر كافة ان ينالوا قسطاً من هداية الكعبة وبركاتها. مواقع استعمال ((الاولية)) في القرآن:

لقد استعمل القرآن الكريم مصطلح ((الاولية)) في مواطن كثيرة تدل علي النسبة بيد انَّ الاستخدام لهذه اللفظة في قوله: تعالي: اول بيت وضع للناس هو استعمال نفسي. أما في قوله تعالي من سورة التوبة لا تقم فيه ابداً ٥ حكاية عن نهى النبي من الاقامة في مسجد ضار وحثه في المقابل للاقامة في مسجد قبا حيث يصفه سبحانه بقوله: لمسجد أسس علي التقوي من اول يوم احق ان تقوم فيه ٦ فان استعمال اول يوم في الآية يكون نسبياً لا نفسياً، والمعني: انَّ المسجد أسس يوم بني، علي التقوي. ولقد ذكر الشيخ الطوسي (رحمه الله) عند تفسير الآية: ((اول الشيء ابتداءه، ويجوز ان يكون المبتدأ له آخر، ويجوز ان لا يكون له آخر، لان الواحد اول العدد، ولا نهاية لآخره، ونعيم اهل الجنة له اول ولا آخر له، فعلي هذا انما كان اول بيت، لانه لم يكن قبله بيت يحج اليه)) ٧.

وقد ذهب مفسرون آخرون ٨ إلي أنَّ الاول لا يستلزم دائماً وبالضرورة ان يكون له ثاني، فقد يقول المرء: هذا سفري الاول الي بيت الله الحرام، دون ان يستلزم كلامه ضرورة ان يوفق لحج البيت مرةً اخري. وعلي هذا يكون معني الاولية هنا، انه لم يكن قبله شيء. وعليه؛ حين يقال اول بيت، فلا يستلزم القول ان يكون ثمة بيت ثاني وهكذا. وهذا الكلام لا يتعارض مع وجود بيوت اخري للعبادة، تكون ثانية وثالثة وهكذا؛ من زاوية: في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه ٩ بيد أنَّ وجود هذه البيوت لا يكون في مقابل وجود الكعبة. وكلام الشيخ الطوسي وان كان صحيحاً في نفسه، الا ان مصداقه غير صحيح. فما يقوله من ان تنعم اهل الجنة له اول ولا آخر له لا يصح، رغم انَّ لهذا النعيم أولاً. ووجه عدم الصحة ان هذه النعم بنفسها لا اول لها ولا آخر، فالجنة موجودة الآن - لا أنها تخلق بعد الدنيا - ونعمها دائمة ثابتة دون انقطاع، خصوصاً تلك الجنة التي يقول عنها تعالي: عند مليك مقتدر ١٠.

الأولية بالذات وبالغير: انَّ الاولية بالذات تختص بالله سبحانه و- ((هو الأول والآخر)) ١١. وفيوضاته غير محدودة إذ ((وكل منه قديم)) وهو ((دائم الفضل)) لا اول لها ولا آخر، لكنه اول بالعرض لا بالذات فان بدايته ترتبط ب- ((هو الاول)) ونهايته ب- ((هو الآخر)) وذلك خلافاً لذات الله تعالي التي لا اول ولا آخر لها، وانما هو سبحانه بالذات، الاول والآخر. الكعبة اول معبد:

انَّ الآية الكريمة تدل علي انَّ الكعبة هي اول معبد بني علي سطح الارض. أما ان تكون دلالة الآية علي أنَّ الكعبة كانت اول بيت بني لليسكن، فهو امر مستبعد، ومثل هذا الاستنباط محفوف بالمشكلات خصوصاً وانَّ الاولية مقيدة بكون الكعبة بنيت ((مسجداً)).

بابست بعد ان

انزاح عنها الماء. اما ان تُفيد الآية أن الكعبة كانت اول بيت فالامر ينطوي علي اشكال كما أشرنا. الا أنه علينا ان نذكر انَّ الآية مثلما لا تثبت فهي لا تنفي أيضاً، ومردُّ ذلك انَّ الجملة الوصفية أو المقيدة لا مفهوم لها - بالمعني الاصولي - وما ال مفهوم له لا اطلاق له ايضاً.

والذي نقصدهُ بأنَّ الجملة لا مفهوم لها، أنَّ الجملة الوصفية واللقبية ليسَ بمقدورهما ان يقيدا الدليل اذا كانَ مطلقاً، لا أنه بمقدورنا ان نقتنص الإطلاق منهما. وبه يتضح الفرق بين قولنا: إن الجملة لا مفهوم لها وبين كون الدليل مطلقاً.

فالجملة الوصفية أو اللقبية لا مفهوم لها بمعنى لا تثبت ولا تُفيد الاطلاق، وانما يكون لها مفهوم في مقام التحديد و حسب لذلك اذا دلَّ دليل من الخارج - من خارج الآية - ان الكعبة هي اول بيت بني علي سطح الارض، علي اساس ((دحو الارض)) فان الآية لا تخالف ما يدل عليه مثل هذا الدليل. وانما يصعب استظهار مثل هذا المعني من الآية نفسها.

بناء الكعبة:

إنَّ المقصود من ((البيت)) هو خصوص الكعبة، حيث يقول تعالي في سورة المائدة: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ١٢.

((قياماً)) هي مفعول ثان للفعل ((جعل)). انَّ الله جعل الكعبة أو البيت الحرام يتصف بكونه عنصر قيام لجميع الناس.

وستتضح العلاقة بين هذه الصفة، وبين ما رأيناه في الآية مورد البحث، من انَّ البيت ينطوي علي سر البركة والهداية للناس كافة.

وما ينبغي ان نشير اليه ان البيت كان موجوداً قبل ابراهيم (عليه السلام) ، الا انَّ عوامل كثيرة أثرت عليه من قبيل الطوفان، فلم يبق علي هيئته الاولي.

وحين قام ابراهيم (عليه السلام) بتشديد البيت ورفع قواعده، أصبحنا منذ تلك اللحظة أمام معالم واضحة لتاريخ البيت ومساره علي مر العصور.

واحدة من هذه المعالم، يحدثنا عنها ما يحكيه سبحانه علي لسان إبراهيم، في سورة ابراهيم، حيث يقول عليه السلام: ربنا اني اسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ١٣ فحين ترك الخليل زوجته هاجر وولده اسماعيل (عليهما السلام) ، في هذه الارض القفرة وهم بوادعهما، سألته هاجر: ((الي من تدعني؟)) فاجاب: الي رب هذه البنية.

لذلك يقول ابراهيم (عليه السلام) : ربنا اني اسكنت. . . ثم بين ما يقصده بما يحكيه القرآن علي لسانه: ربنا ليقموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ١٤ لانك انت ((مقلب القلوب)). ولقد قال ابراهيم افئدة من الناس وإلا لو كان الخليل (عليه السلام) قد قال - كما يذكر الطبري في تفسير الآية - : افئدة الناس لحج جميع الناس سواء منهم اليهودي والنصراني واصحاب الملل الاخرى.

لم تكن مكة أرضاً مواتاً يمكن إستصلاحها لتعمر بالنبات والزرع وانما كانت أرضاً جبلية صخرية تغتفر الي الماء. لذلك عيرت الآية في دعاء الخليل (عليه السلام) عن وادي مكة بأنه غير ذي زرع ولم تعبر عنه بأنه ((لم يزرع)) اذ لو كانت الارض صالحة للزراعة، بيد انها مهملة بانصراف الجهد الانساني عنها، لقل عنها ((لم تزرع)) من باب ((عدم الملكة)) أما أنها غير صالحة للزراعة والاعمار اصلاً فقد عبر عنها بانهار ((غير ذي زرع)) .

ذلك: ربنا اني

اسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع وقد أوكل الامر اليه - سبحانه - في ان يفعل ما يشاء.

لقد تضمن هذا المقطع من الدعاء بيان المقاصد التالية:

١- انَّ القصد الأساس هو ان يقيموا الصلاة ربنا ليقموا الصلاة وإن كان ثمة مقاصد اخري في السياق.

٢- طلب (عليه السلام) ان يعطف قلوب وعقول شطر من الناس إليهم.

٣- ثم إراد من ربّه ان يشملهم من الثمرات رزقاً لعلهم يشكرون ١٣ .
لقد تكررت مضامين هذا الدعاء الإبراهيمي في سورة البقرة، حيث قال (عليه السلام)
فيما يحكيه القرآن علي لسانه: رب اجعل هذا بلداً آمناً ١٥ .
فانبثقت بعد فترة عين زمزم ببركة هذا الدعاء وباستغاثة هاجر (عليها السلام) وبصرخات
اسماعيل (عليه السلام) وبكائه. وهو طفل صغير.
ولما انبثق الماء حلت الطيور حوله، واخذت القوافل تحط رحالها عنده، فتحولت مكة الي ((
بلد)) واجيبت الدعوة.
حينما جاء ابراهيم الخليل (عليه السلام) ورأي الوادي قد تحوّل الي بلد، اعادَ (عليه
السلام) دعاءه مع تغيير السياق: واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً ١٦ فقد دخلت
هنا (الالف واللام) علي كلمة بلد بينما بقي طلب الأمن ثابتاً لكلا الحالتين.
لقد حقق سبحانه لابراهيم دعوته وحلّ الأمن في مكة، حتي تميّزت عما حولها من البلاد،
اذ يقول تعالي: أو لم يروا انا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم اقبالباطل يؤمنون
وينعمة الله يكفرون ١٧ .
ان استعمال يتخطف ينطوي علي دلالة عميقة في رسوخ الامن، فالخطفة تعني انقضاء
الصقر علي فريسته في حال غفلتها، ومكة في امان من ذلك.
لقد استجيبت دعوة ابراهيم واضحي لحرمة آمناً، حتي علي صعيد الحكم الفقهي،
ذلك انؤمن دخله كان آمناً ١٨ .
ان جملة عند بيتك المحرم تدل دلالة واضحة علي انّ للبيت وجوداً قبل ابراهيم (عليه
السلام) . وانما غاية ما هناك انه تعرض لحوادث طبيعية وغير طبيعية، جعلت البيت عرضة
للهدام والخراب. حصل ذلك قبل ابراهيم وبعده أيضاً، حيث تهدمت الكعبة اثر السيول، وفي
عصر الإسلام قام الحجاج برميها بالمنجنيق من علي جبل ابي قبيس.
لذا فان الصخور السوداء التي تعلو جدران الكعبة الآن، هي ليست نفس الصخور التي كانت
عليها قبل عدة قرون.
والذي يظهر انّ الكعبة كانت في صدر البعثة النبوية، لا يتجاوز ارتفاعها ضعف طول الانسان
المتوسط. نستفيد ذلك من واقعة ارتقاء الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه
السلام) علي كتفي رسول الله (صلي الله عليه وآله وسلم) ، حيث رمي الاصنام وقذف
بها نحو الارض اثناء فتح مكة.
اما الجانب المعنوي في هذه الواقعة فله حسابه الآخر، حيث عبر الامام علي (عليه
السلام) : انه حين كان علي كتف رسول الله (صلي الله عليه وآله وسلم) لو رام ان ينال
الثريا لنالها.
ما نستفيدة من هذا العرض انّ الكعبة كانت عرضة للهدام والتخريب اكثر من مرة. وفي هذا
السياق جاء الخطاب الي ابراهيم الخليل: واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت حيث تكفل
سبحانه بيان المكان ووضع التصميم الهندسي

حيث جاء في

تتمة الخطاب الالهي: ألا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود
.١٩

بين الكعبة وبيت المقدس:

ان لبيت المقدس قدسيته ومكانته، إلا اننا لا نجد في القرآن انّ الله - سبحانه - ينسبه
الي نفسه في الكيفية، التي نتلمسها في الكعبة والتي تختص بها دون غيرها، كما في
قوله تعالي: بيتي وبيت الله.

بعد ان اقام ابراهيم البيت، جاءه الخطاب الالهي: وأدّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً ٢٠ أنّ جملة يأتوك هي جواب الامر، بمعنى سيأتون في المستقبل. و هؤلاء سيأتون باي كيفية ممكنة، فمنهم المشاة، ومنهم من يأتي وعلي كل ضامر أي الهزيل من النوق وغيرها. وبه يتضح ان الملبين للنداء الإبراهيمي، منهم من يأتي مشياً، ومنهم من يأتي راكباً علي كل ضامر. أما اولئك الذين لهم القدرة ان يركبوا علي غير الهزيل الضامر، فان حظهم في الاستجابة للنداء أقل من غيرهم. وفي كل الاحوال، فان الملبين للنداء سينطلقون من كل مكان يقصدون البيت. يأتين من كل فج عميق ٢١ .

يتضح من سياق الآيات انّ ابراهيم (عليه السلام) طوي مراحل متعدّدة بامر الله تعالى. فبادئ الامر تعرف علي ارض مكة، ثم ترك فيها زوجته وولده، وطلب من ربه ان تكون لهما بلدة آمنة.

وحين عاد اليها مجدداً رآها وقد آلت الي ان تكون ((بلدة)) فكرر دعوته في ان يجعلها أمياً وأماناً. ثم جاءه الخطاب بتشديد قواعد البيت، وفي الاثناء توجه الي ربه بدعائه: تقبل منا انك انت السميع العليم ٢٢.

وحين بنيت الكعبة وصفها تعالى بقوله: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ٢٣ ولم يقتصر الامر علي الكعبة وحدها في ان تكون حراماً، وعنصر قيام للناس، وانما اتسع المكان ليشمل الحرام، وامتد الزمان ليستوعب الشهر الذي يتم فيه الحج، فكل ذلك، وما يتخذ الناس من الهدى والقلائد اصبح شعاعاً وقياماً للناس. والشهر الحرام والهدى والقلائد ٢٤ لقد ذكر الطبري في تفسيره للآية، ان البيت كان قواماً للناس في الجاهلية، حتي وهم لا يرجون جنة ولا يخافون ناراً، فشدّد الله ذلك بالاسلام. ثم اضاف: ((كان الرجل لو جر كل جريرة، ثم لجأ الي الحرم لم يتناول ولم يقرب. وكان الرجل لو لقي قاتل ابيه في الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقربه)).

بل زاد الامر علي ذلك بعدم التعرض للحيوان اذا قُدد بقلادة، اذ يصبح في امان حتي وهو يأكل من علف غير صاحبه.

وبشكل عام، كانت معالم الامن ظواهر واضحة، يمكن تلمسها والاحساس بها لزوار البيت الحرام.

القبلة الي البيت المقدس:

ليس ثمة شك، ان بيت المقدس اضحي قبلة من عصر سليمان (عليه السلام) فما بعد، فسليمان هو الذي وضع تصميم بيت المقدس وقام ببنائه.

لقد كان رسول الله (صلي الله عليه وآله وسلم) ، حين كان في مكة، يتوجه علي خط واحد الي الكعبة وبيت المقدس، حيث كان يقف في كيفية تجمع بين القبلتين.

ومثل هذا الجمع كان سهلاً في مكة؛ لأن بيت المقدس يقع في شمال غربي الكعبة، ورسول الله (صلي الله عليه وآله وسلم) يقف في جنوب الكعبة فيكون بمقدوره ان يجمع القبلتين علي خط واحد.

اما في المدينة فقد اختلف الامر تماماً، لذلك كان يقصد بيت المقدس قبلة حين الصلاة بعد ان تعذر الجمع بينه وبين الكعبة، بل كانت الكعبة تقع الي وراء ظهره.

الله عليه وآله

وسلم) واقف يصلي في مسجد القبلتين، فاستدار وهو في الصلاة نحو الكعبة. □
المسجد الحرام والمسجد الاقصي:

جمعت الآية الكريمة من سورة الاسراء بين المسجد الحرام والمسجد الاقصي، حيث يقول تعالي: سبحان الذي أسري بعبده ليلاً من المسجد الحرام الي المسجد الاقصي الذي باركنا حوله ٢٥.

إن عوامل الارض والمناخ والماء ساهمت جميعاً في إعطاء مزايا لأطراف المسجد الاقصي، كانت سبباً في كثرة النعم والخيرات. ومع ذلك فقد قُدر لمكة أن تنعم بكل هذه الثمرات والخيرات أو اكثر، رغم أرضها ومائها ومناخها. والسر في وفور الخيرات والثمرات دائماً في مكة هي دعوة الخليل المستجابة وارزقهم من الثمرات.

الفوارق بين الكعبة والمسجد الاقصي:
لقد اضطلع بمسؤولية بناء الكعبة ابراهيم الخليل وهو (عليه السلام) من أولي العزم. بينما اضطلع سليمان (عليه السلام) ببناء بيت المقدس، وهو ليس من اولي العزم، وانما من الحفاظ الشرائع اولي العزم.

بيد ان هذا الفارق ليس هو الوحيد بين الكعبة والمسجد الاقصي، وانما ثمة فارق آخر يتمثل بالوعد الإلهي، بحماية الكعبة وحراستها من الأعداء؛ هذا الوعد الإلهي تحول الي سيرة عملية، في حين لا نجد ما يناظر هذا الوعد بالنسبة لبيت المقدس. فلو أراد أحد ان يتعرض للكعبة لعرض للاستئصال، كما حماها سبحانه بطير ابابيل وصانها بمعجزات اخري. أما عملياً فلا نجد مثل هذا الوعد بالنسبة لبيت المقدس، اذ استطاع ((بخت نصر)) ان يهدم بيت المقدس تماماً، إلا أنه لم يتعرض لما تعرض اليه ابرهة الحبشي.

بناء الكعبة لمنفعة الناس:

ما نستفيده من ظاهر الآية الشريفة - مدار البحث - انَّ اول بيت وضع لعبادة الناس كان في مكة، وقد وضع لينتفع منه الناس، حيث يقول تعالي: وضع للناس وان كان التعبير في مورد التكليف بالحج جاء قريباً بحرف الجر ((علي)) حيث يقول تعالي: لله علي الناس إلا انا سنوضح ان العبادة والتكليف لا يمكن أن يكونا ضد الناس ابدأ، بل هما لصالحهم دائماً. لذلك تجد اهل السلوك يعبرون عن التكليف بالتشريف. فالرجل حين يبلغ السادسة عشرة من عمره والمرأة حين تبلغ العاشرة يعبرون عنهما انهما قد بلغا سن التشريف (ويعنون به التكليف) واصبحا اهلاً للخطاب الالهي، في حين لم يكونا قبل ذلك اهلاً لتلقي ما ينطوي عليه الخطاب من أحكام نظير قوله تعالي: وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ٢٦. وعن الاحكام الإلهية عموماً بما ينطوي عليه من تكليف يقول تعالي: ذلكم خير لكم ٢٧. وانطلاقاً من هذه الزاوية بالذات عبر عن العبادة بـ ((اللام)).

١٤

معبد الانبياء:

ظاهر ما عليه الآية من الاطلاق انَّ البيت الحرام والكعبة المشرفة كانا اول معبد في تاريخ البشر، بحيث لم يكن لنبي قبلة غير الكعبة.

هذا الاستنتاج نستطيع ان نؤيده من آيات في سورة ((مريم)). ففي هذه السورة نقرأ عن المسيح: وجعلني مباركاً اينما كنت واوصاني بالصلوة والزكاة ما دمت حياً ٢٨. وذلك علاوة علي ما في سورة من وصايا لانبياء آخرين، حيث يقول - تعالي - بعد ان ذكر عدداً من الأنبياء: أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ٢٩.

ففسار الانبياء (عليهم السلام) من آدم حتي نوح، ومن نوح حتي ابراهيم، وما بين هؤلاء الأنبياء ومن ذريتهم يمدحهم الله بقوله: إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً ومن

الواضح أنّ السجود يستلزم وجود الجهة، سواء أكان المعني السجود بنفسه أو السجود في اطار الصلاة، حيث تقام الصلاة لقبلة بعينها. علي ان الراجح هو قيامهم بالصلاة، كما تؤيد ذلك الآية التي تليها، حيث يقول تعالي: فخلف من بعدهم خلف أضعوا الصلوة واتبعوا الشبهوات فسوف يلقون غيا ٣٠. يتضح مما تقدم ان الانبياء كانوا من اهل الصلاة، وان الصلاة والسجود يستلزمان جهةً وقبلة.

وفي مسألة القبلة إما أن نستند إلي قوله - تعالي - فنقول: فأينما تولّوا فثمّ وجهُ الله ٣١ وهو قول بعيد. وأما ان نقول بجهة خاصة كانت قبلة لهم. وما نستفيده من ظاهر الآية في اطلاقها، ان الكعبة كانت قبلة الصلاة والسجود لجميع انبياء الله من آدم حتي النبي الخاتم (عليهم السلام) . أما احتمال غير الكعبة قبلة لهم، فهو مما لا يتسق مع ما عليه الآية من اطلاق. لماذا سميت مكة ببكة؟

قال تعالي: للذي ببكة وقد قيل: إنّ المقصود بـ ((بكة)) هو مكة، اذ تبديل الميم الي الباء يحدث احياناً نظير ((لازب ولازم)). بيد أنّ تعليل ذلك لا يكون بالتبديل، وانما: ((لان الناس يبك بعضهم بعضاً)) ٣٢ اثر الازدحام والكثرة عند اجتماع الناس فيها. و ((بك)) تأتي بمعنى التحطيم، فهي بكة لانها تبك اعناق الجابرة والبغاة اذا بغوا فيها، فتدفعهم.

معني مباركاً:

يقول تعالي في وصف بيته الذي بمكة: مباركاً وهدياً للعالمين . والمعني ان البيت منشأ الوفير من البركات، وهو وسيلة هداية للناس. وتطلق ((البركة)) علي المال والشيء الثابت، فما له ثبات ودوام فهو مبارك.

من هنا اطلق علي تجمعات الماء في الصحراء انها ((بركة)) لما تتسم به من ثبات، ولا نها تحفظ الماء من الهدر فيدوم.

ويتعبير الشيخ الطوسي فانّ الصدر يسمي ((برك)) ؛ لانه المكان الذي تحفظ فيه العلوم والاسرار والافكار وتثبت. وكذا يقال ((برك)) لوبر البعير من جهة صدره. وذات الله مباركة لجهة ثبات خيرها ودوامها.

ي فهو يكون

((مباركاً)) ؛ أي وفير الخيرات دائمها. اماكون الكعبة وسيلة هداية للناس كافة، فمرد ذلك إلي ان جميع العباد والسالكين يقصدونها؛ ومنها صدعت دعوة الحق الي البشرية جمعاء؛ اذ منها انطلق نداء نبينا (صلي الله عليه وآله وسلم) : ((لا اله الا الله)) الي ارجاء الدنيا، ومنها سيبلغ نداء خاتم الاوصياء المهدي (عليه السلام) اسماع البشرية في اليوم الموعود.

فهي اذاً محض الحق، تتوفّر علي وسائل كثيرة اخري لهداية الناس. وفي مكة آيات لله لا تحصي . في آيات بينات.

مقام ابراهيم:

يقول تعالي: مقام ابراهيم لقد ذهب البعض للقول: ان ابراهيم (عليه السلام) كما ((كان امة واحدة)) فان مقامه ايضاً بمنزلة ((آيات بينات)) ؛ أي ان المقام في آثار اقدم الخليل (عليه السلام) وفير بالمعجزات، حتي اضحي المقام بمنزلة ((امة واحدة)) في باب الاعجاز، كما هو شأن الخليل نفسه.

والسؤال: كيف اضحي ((مقام ابراهيم)) آيات بينات بصيغة الجمع، في حين ان السياق يقتضي التعبير بالمفرد، فيقال: آية بينة؟

ثمة في الجواب عدّة احتمالات، نشير للاول منها من خلال ما يلي:
أولاً: لقد تحول الصخر الصلد الي عجين لين، وذلك في حد ذاته آية ومعجزة.
ثانياً: ثمة مكان محدد من الصخرة هو الذي لان دون البقية.

ثالثاً: ان لين الصخرة حصل لعمق وبشكل معين ثم عادت الصخرة - فيما عدا ذاك - لصلادتها.

رابعاً: لقد بذل الاعداء جهوداً محمومة لمحو هذا الاثر، بيد أنه بقي يتناول علي الزمان محفوظاً من عبث الطغاة.

خامساً: ثمة قوي مولعة بخطف ما يقع بيديها من آثار قديمة في بلاد المسلمين تتسم بطابع فني، أو تحمل خصائص مقدسة، ومع ذلك بقي هذا الاثر دون ان تغلح هذه القوي بنقله إلي خارج العالم الاسلامي.

كيف تشكل الاثر في مقام ابراهيم؟

هل تشكل الاثر في مقام ابراهيم حين وقف (عليه السلام) علي المكان - الصخرة - اثناء بناء الكعبة؟ أو ان الآية حصلت حين عاد ابراهيم للمرة الثانية فطلبت منه زوجة ولده اسماعيل ان ينزل لتغسل له (رأسه أو رجله) الا أنه لم ينزل وانما وضع قدمه علي الصخرة فتركت هذا الاثر؟ أو الاثر انطبع علي الصخر حين اعتلاه الخليل ليؤذن في الحج امتثالاً لامر الله تعالى: واذن في الناس بالحج ياتوك رجالاً ٣٣

يمكن ان يكون الاثر قد حصل في جميع هذه الحالات، أو في احداها.

فجميع هذه الوجوه محتمل الوقوع. بيد ان ما يهمننا التأكيد عليه هو أن الخليل (عليه السلام) وضع قدميه علي الصخرة فانطبع آثارهما، وبقيت الآثار حتي اللحظة. أما في أي حالة من الحالات أنفة الذكر تم ذلك، فالامر مناط للروايات الخاصة التي تتكفل اضاءة المسألة وبيانها.

ان هذه الخصيصة التي حصلت لإبراهيم (عليه السلام) ، حيث يحدثنا (سيحانه) في سورة سبأ، بقوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالِ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ٣٤. ليس هذا وحده، وانما علّم داود صناعة الدروع، حيث يقول تعالى: وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لِبُوسٍ ٢٥ لَقَدْ كَانَ الْحَدِيدَ الْبَارِدَ الصَّلْدَ يَلِينُ بَيْنَ يَدَيْ دَاوُدَ (عليه السلام) .

وما ينبغي الانتباه اليه ان القرآن استعمل لنا في مسألة الحديد، في حين استعمل علمناه في صناعة الدروع. والسر ان صناعة الدروع هي جزء من العلوم الحرفية الصناعية التي يمكن تعلّمها واكتساب المهارة فيها، وبالتالي

دخول في اطار

العلم والتعلّم، و بالتالي لا يمكن ان تنتقل الي الآخرين، ولذلك لم يعبر عنها ب- ((وعلمناه إلانة الحديد)).

قد يقال: إن من الممكن إلانة الحديد عبر تذيويه في صهاريج الفولاذ، الا ان الآية لا تتحدث عن هذا النمط من الإلانة والتذويب الذي يقع في مجال العلم، وانما تتحدث عن فعل اعجازي، حيث كان داود (عليه السلام) يمسك الحديد الصلب بين يديه ويشكّله كيفما شاء، تماماً كما يمسك الانسان العادي الشمع بين يديه ويعيد تشكيله بما يشاء.

ومقام ابراهيم (عليه السلام) هو من هذا القبيل، مع فارق بين الاثنين حيث لان الحديد لداود، والصخر لابراهيم، والتقدير ((والنا له الحجر)).

لقد اضحي الصخر ليناً ناعماً بين قدمي الخليل، حتي ترك اثرهما عليه، مُضافاً لذلك ان الصخر اضحي بمثابة ((المحفظة)) لقدم الخليل (عليه السلام) كما الحديد بالنسبة لداود (عليه السلام) .

والآن عودة الي بدء. فقد انطلقنا من السؤال التالي: كيف يكون مقام ابراهيم لوحده - بصيغة المفرد - دالة علي آيات بينات وهي بصيغة الجمع؟
ذكرنا حتي الآن احد احتمالين - حيث لا حظنا انه هناك عدد من الآيات المعجزة في المقام بشكل مجموعها: آيات بينات - والاحتمال الاول هذا ذهب اليه الزمخشري.
أما الاحتمال الثاني ففجواه ان آيات بينات تنطوي علي عددٍ كبير - من الآيات والمعجزات - احداها مقام ابراهيم، وثانيها: و من دخله كان آمناً .

الأمنان التكويني والتشريعي لبيت الله الحرام:
ان للكعبة امناً تكوينياً، اذ ذاب الكثير من الطغاة علي التعرض للبيت في محاولة للقضاء عليه، ولا لحاق الاذي بأهل مكة، الا ان الله سبحانه حفظ البيت وجعله في امان. يقول تعالى: الذي اطعمهم من جوع وأمّنهم من خوف ٣٦. ويوم لم يكن ثمة اثر للتشريع والاحكام، كان اهل مكة وهم مشركون يتمتعون بأمن خاص. ثم هناك الامن التشريعي، ومؤداه: من دخله كان آمناً بل ان الطبري نقل في تفسيره للآية (٩٧) من سورة آل عمران، ان المجرم الجاني كان في الجاهلية اذا لجأ الي الكعبة لا يتعرض له احد بسوء.
وهنا لا نحتاج للتكلف فنحضر آيات بينات في خصوص ((مقام ابراهيم)) أو خصوص ما للبيت من أمن إلهي مجعول. فبئر ((زمزم)) و ((حجر اسماعيل)) و ((الحجر الاسود)) هي ايضاً آيات بينات.

بل ان البيت بنفسه هو معجزة وآية بينة، بدليل ما حلّ باصحاب الفيل الذين همّوا بهدم الكعبة، فواجههم (سبحانه) بجيوش الهية، كما تحكي لنا ذلك سورة الفيل: الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل. . . ؛ فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ اذاً، ليس ثمة ما يدعونا للقول: ان ((مقام ابراهيم)) هو وحده بيان لآيات بينات، وانما خص بالذكر من باب ذكر الخاص بعد العام.

يقول تعالى في سورة البقرة: واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلي وعهدنا إلي إبراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ٣٧. لقد ذكر في بحث مفصل ان ((البيت)) مرجع للناس كافة وملاذ لهم، وهو محاط بأمن تكويني وامن تشريعي. فاذا أراد احد التعرض للبيت بهدف الهدم والافناء فان الله (سبحانه) يكون بالمرصاد.

ي الحرم، أمن

اقامة الحدود عليه طالما مكث بالحرم؛ الا أن لا يراعي حرمة البيت، فحينئذٍ يشمله القصاص. يقول تعالى: والحرمت قصاص ٣٨. بمعنى ان الانسان اذا تعرض لحرمة الكعبة والمسجد الحرام وعموم الحرم والشهر الحرام، فسينزع عن نفسه الامان، ويكون عرضة للقصاص والحد.

فاذا اجترح الانسان جناية في الحرم اقيم عليه الحد حتي وهو داخله. اما اذا ارتكب الجناية خارج الحرم ولجأ اليه أمن الحد وامهل حتي يخرج منه. ولكن يضغط عليه حتي يلجأ إلي خارجه؛ فلا يتناع منه ولا يطعم ولا يحسن اليه.

ثمة غير الآية التي نتحدث عنها، آية اخري تشير الي ما يتحلي به الحرم من أمن، حيث يقول - تعالى - في سورة العنكبوت: أو لم يروا انا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم، أقبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ٣٩.

والسر ان ما من احد يتعرض الي البيت بقصد الإفناء، ولاهله بقصد الاستئصال، الا وكان الله له بالمرصاد، فيذيقه العقاب بلا امهال: ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم ٤٠.

ثمة رواية ينقلها المرحوم ابن بابويه في كتاب ((من لا يحضره الفقيه)) مؤدّاه: اذا كان البيت يتحلي بحرمة خاصة، واذا كان (سبحانه) قد أرسل طيراً ابابيل علي جيش ابرهة حين قصد الكعبة؛ فلماذا لم تشمل الحماية الالهية ابن الزبير حين تحصن داخل الكعبة، حيث قام الحجاج بن يوسف برمي الكعبة بالمنجنيق من علي جبل ابي قبيس - بأمر من عبدالملك - فهدمت الكعبة وأعتقل ثم قتل؟

ذكر ((الصدوق)) في الجواب: ان حرمة الكعبة انما تكون لحرمة الدين وحفظه وصيانتها. وحافظ الدين وحارسه في زمان حضور الامام المعصوم، هو الإمام نفسه، وفي زمن غيبته يضطلع بالمهمة نوابه.

ثم نقل عن الامام (الذي يبدو هو الامام السجاد عليه السلام) انّ الزبير لم ينصر امام زمانه سيد الشهداء الحسين (عليه السلام) حتي استشهد مظلوماً، وحينما آلت الامامة الي الامام الذي يليه (الامام السجاد عليه السلام) لم ينصره ولم يدع اليه. لذلك لم ينصره الله ولم يدفع عنه حتي وهو يلوذ بالكعبة ويلجأ الي داخل البيت، كما حصل في جيش ابرهة حيث ارسل (سبحانه) طيراً ابابيل في حين لم يحصل الشيء نفسه حين رمي الحجاج الكعبة بالمنجنيق.

لذلك انتهى الامر باعتقال الامويين لابن الزبير - وهو رجل فاسد - فقتلوه ثم اعادوا بناء الكعبة دون مشكلة تُذكر. أما بالنسبة لابرهة فالامر يختلف تماماً، اذ كان هدفه افناء الكعبة وتحويل قبلة الناس الي جهة اخري، لذلك لم يمهل سببانه.

بمعني آخر، ان تصرف الحجاج بن يوسف لم يشكل نقصاً للآية من يرد فيه بالحاد يظلم نذقه من عذاب اليم ولا يتعارض معها. ولا زال الامر يشكّل حالة مطردة، فلو افترضنا ان هذه الديار تتحوّل الي ديار ظلم، فالله (سبحانه) لا يتدخل لقمع الظالم واستئصال الظلم ان لم يكن أهل الديار علي الصراط المستقيم؛ وانما يمكن ان نفسر امثال هذه الوقائع علي اساس: تولي بعض الظالمين بعضاً ٢١ - أي ان الوقائع تتحرك علي مسار قانون آخر -.

ان الفكرة المحورية التي ينبغي ان ننتبه اليها، هي ان علي المسلمين ان ينهضوا بتكليفهم، ويضطلعوا بواجباتهم، ثم ينتظروا الوعيد الالهي: من يرد فيه بالحاد يظلم نذقه من عذاب اليم.

نسبة ((البيت)) الي الله والناس.

ثمة في مطلع الآية - مورد البحث - ما يؤكد الفكرة التي نبحتها، وبدل عليها، حيث يقول تعالي: ان اول بيت وضع للناس. . . .

لقد نسب الله (سبحانه) البيت الي ذاته المقدسة كما نسبه الي الناس، ولكن مع فارقين احدهما أدبي والآخر معنوي. أما الأدبي فيتجلي في نسبة البيت اليه (سبحانه) من دون ((لام)) حيث قال: أن طهراً بيتي أما حين النسبة الي الناس فقد دخلت ((اللام)) حيث قال سبحانه: وضع للناس . والمعني المراد: أن الكعبة هي بيت الله، وليست بيتاً للناس، بيد انها وضعت للناس ومن أجلهم.

أما الفارق المعنوي فهو يتجلي في انّ اضافة البيت الي الله (سبحانه) هي التي منحتة الشرف والرفعة. وذلك علي عكس الحالة الثانية، اذ اكتسب الناس الشرف والرفعة باضافتهم الي البيت.

فشرافة ((البيت)) من نسبه لله تعالي؛ وشرافة الناس من نسبتهم الي البيت. قوله تعالي: وضع للناس الوضع هنا تشريعي، والمقصود: ان البيت معبد وقبلة ومطاف للناس؛ جميع الناس دون ان يكون من اختصاص فئة دون اخري. والطريف الذي يلاحظ انّ التعبير جاء بصيغة ((وضع للناس)) لا بصيغة ((بني)) للناس.

قبلة لوحدها:

لنفترض أنّ الآية الكريمة أشارت الي الارض التي تحيط الكعبة، فمع هذا الافتراض، تكون الإشارة من باب ان هذه المساحة تشكل منطقة الحرم. أما ما هو مهم، فهو البناء الخاص؛ أي الكعبة.

وما يقال - علي سبيل التقرير - من أنّ الكعبة قبلة، فذلك في مقابل من ذهب للقول: أنّ الكعبة قبلة للقريب؛ ولا هل مكة يكون المسجد الحرام قبلة، أما البعيد فقبلته الحرم المكي برمته ٤٢.

فهذا الرأي خطأ؛ والصواب أنّ الكعبة هي قبلة الجميع سواء منهم القريب والبعيد. والفارق الذي يقال انما يصدق علي جهة الاستقبال.

لقد حث الاسلام النبي والآخرين، علي ان يقولوا في كلّ الحالات: ((والكعبة قبلتي)) ٤٢ حتي اضحت هذه الجملة ذكراً يردده الجميع.

انّ لجميع الاموات والاحياء شأناً مع الكعبة، فالمحتضر يستقبلها، والميت يدفن باتجاهها. بيد أنّه ليس لاحدٍ من هؤلاء شأن مع مسجد الحرام أو الحرم بنفسهما. اما قوله تعالي: شطر المسجد الحرام ٤٤ فهو من جهة: فلنولينك قبلة ترضيها ٤٥ فالقبلة المتمثلة بالكعبة هي المقصد.

ثم إن الذي يولي وجهه شطر المسجد الحرام حتي يكون قد اتجه إلي الكعبة؛ فالاختلاف اذاً في جهة الاستقبال لا في القبلة نفسها. فالقريب يتوجه نحو البيت ويستقبل بوجهه ((جرم الكعبة)). أما البعيد فهو يولي نحو الحرم، الا انه يتوجه الي الكعبة.

وبالنسبة لقوله تعالي: وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ٤٦ فان المقصود هو استقبال المسجد الحرام، لا اتخاذه قبلة. فالمسجد الحرام ليس قبلة بنفسه، ولا الحرم المكي، وانما تقتصر القبلة علي الكعبة نفسها كما اثبت ذلك المصطلعون بالدراسات الاسلامية (الفهية).

ومن طريف ما يمكن ان يشير اليه هنا، ما ذهب اليه بعض الأكابر من العلماء من أنّ الكعبة بنفسها ليست قبلة ايضاً؛ بل القبلة ماثلة في حيز الفضاء الخاص الذي تشغله. ورحم الله استاذنا المحقق الداماد الذي كان يكرر هذه الجملة بدأب: ليست الكعبة هي القبلة، اذ يمكن لهذه ((البنية)) ان تنهدم أو تنهار في يوم من الايام اثر سيل أو غيره؛ فهل يبقى المسلمون يومئذٍ دون قبلة!

لذلك قالوا: إن القبلة هي ليست هذه البناية والجدران المضلعة، بل هي الفضاء الخاص الممتد ((من تخوم الأرض الي عنان السماء)) ٤٧. واستدلوا علي ذلك بأن المصلي اذا صلي في مكان منخفض أو مرتفع عن مستوي سطح الكعبة وبنائها، فهو يتوجه في الحالتين الي الفضاء الممتد من تخوم الارض الي عنان السماء، وكون هذا الفضاء قبلة لا يطرأ عليه أي تغيير أو تبديل.

ومن الطريف ان نختم هذه الفقرة بكلمات للفخر الرازي في فضل الكعبة وشرفها انتقلت من بعده الي كتب الآخرين؛ حيث قال: ((ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة، فالأمر هو الملك الجليل؛ والمهندس هو جبريل؛ والبانى هو الخليل؛ والتلميذ اسماعيل (عليهم السلام) ٤٨ وكفي بذلك فضلاً وشرفاً)).

بيد ان مثل هذا الشرف والفضيلة لم يثبتا لبيت المقدس.

يات بينات)) :

ثمة آيات بينات في هذه الديار المقدسة، هي بمجموعها دلالة واضحة علي الغيب. أنّ الآية معناها العلامة، وهي بالاصطلاح القرآني علامة صدق الانبياء، فيما يدعون اليه من ربوبية الخالق وعبودية المخلوق.

لقد توفّر الفخر الرازي في تفسيره علي ذكر علامات (آيات) كثيرة تدل علي خصوصية الكعبة وكيفية بنائها ٤٩، وهي تتحرك اجمالاً في نطاق هذا المحور، وفيما يلي نستعرض بعض هذه الآيات - العلامات :-

١- انبثاق زمزم ودوام فوران مائها:

ثمة الكثير من الآيات البينات في خصوص بئر زمزم، فماؤها شفاء، وهو لا يفسد حتي لو طالت عليه المدة. ثم ان بئراً يبقى ماؤها يفور منذ آلاف السنين، في ارض تفتقر الي الأمطار الغزيرة ولا تكاد تسقط فيها الثلوج الا نزرأ، هو بحد ذاته معجزة وآية معجزة وآية من الآيات الالهية البينة.

أما لو كانت هذه البئر في ارض تغزر فيها الامطار ويتكاثر سقوط الثلوج، لأمكن تفسير دوام انبثاق مائها علي اساس: فسلكه ينابيع في الأرض ٥٠.

ثم ان في مائها بركة خاصة، كان رسول الله (صلي الله عليه وآله وسلم) يطلبه هدية من القادمين من مكة.

وبئر هذا منبثقها؛ وهذا دوام فوران مائها، وفي مائها البركة والشفاء، بحيث لا يفسد ماؤها ولا يصاب بالعفن، لهي حقاً محفوفة بالمعجزات، بل إن ماءها وحده هو تجلي ل- ((آيات بينات)) .

٢- المشعر الحرام.

في أطراف مكة (المشعر الحرام، عرفات، ومني) علامات تتجلي فيها آيات بينات. فرغم ان تلك المنطقة بعيدة عن مدار السيل، إلا أنه يكثر فيها الحصي واجزاء الصخر المفتت الي قطع صغيرة، كتلك التي تتركها السيول حين تدهم منطقة صخرية جبلية.

فالحصي هناك كثير، ويكفي ان نتصور كثرته بما يحمله كل حاج بمفرده، اذ يحتاج كحدٍ وسط أو أدني الي سبعين حصة؛ ومع ذلك لا زال الحصي وفيراً لم ينفذ، وفي ذلك وحده معجزة. يقول الفخر الرازي في تفسيره الكبير: ((وقد يبلغ من يرمي في كل سنة ستمئة ألف إنسان - كل واحد منهم - سبعين حصة، ثم لا يري هناك الا ما لو اجتمع في سنة واحدة لكان غير كثير ٥١. وقد يقال الآن: ان المسؤولين في الحجاز هم الذين يتولون عمليه رفع الحصي المجتمع وتسطيح الارض مجدداً، ولكن ماذا بالنسبة لذلك الزمان؟ .

٣- رعاية الحيوان لحرمة الكعبة:

تسعي الطيور ان لا تحط في أعلي الكعبة كي لا يتلوث المكان بفضلاتها؛ واذا كانت في حالة انحدار من الأعلى نحو الارض، فانها تبتعد عن الكعبة بزواية معينة. وفي ذلك وحده علامة علي آية بينة.

و ما ينبغي ان نشير اليه، ان عدم تلووث الطيور للمشاهد المشرفة والعتبات المقدسة، هو ظاهرة مشهودة أيضاً، وان كان الأمر يختلف بالنسبة الي الكعبة في تلك الزاوية التي ينحدر بها الطير بعيداً عن الكعبة.

لقد تحدثوا بمثل هذه الكرامة لحرم الامام امير المؤمنين (عليه السلام) فقالوا: ان الطير تراعي هذا الأدب من باب: ((ينحدر عني السيل ولا يرقى الي الطير)) ٥٢

وقالوا عن الحرم المكي أيضاً: ان الوحوش لا تعتدي علي بعضها البعض وهي في الحرم، ولا تلحق الاذي بالحيوانات الأليفة.

وما نخلص إليه: ان ثمة الكثير من الشواهد الظنية التي تُفيد ان هذه المنطقة ليست عادية، فالحيوان فيها آمن، والانسان يتحلي بأمن نسبي ملحوظ الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ٥٣ في حين كان من حولهم . . . ويتخطف الناس من حولهم، أقبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ٥٤.

مقام ابراهيم:

يحتل مقام ابراهيم (عليه السلام) موقعاً خاصاً في صلاة الحاج وطوافه، كما ينص علي ذلك القرآن. وللمقام حرمة خاصة كونه مصداقاً للآيات البيّنات. يقول تعالى: واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلياً، وعهدنا الي ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ٥٥. هل تجب الصلاة خلف المقام مباشرة أم أنها تكفي عند المقام؟ ثمة اقوال انتهي اليها البحث الفقهي وفق اختلاف المدرك (الرواية) ، اذ احتاط بعضهم فذهب الي وجوب الصلاة خلف المقام مباشرة؛ فيما عد البعض الآخر الصلاة عند المقام كافية. لقد تحدثنا في فقرات البحث السابقة، عن كيفية كون مقام ابراهيم معجزة، واشرنا الي ما يتصل بذلك من حديث، فلا نعيد.

تقابل ((اللام)) و ((علي)) :

يقول تعالى: والله علي الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً انّ علي الناس في الآية هي في حقيقتها للناس أي: لنفع الناس وفائدتهم، لا لضررهم وعليهم. كما ان ((اللام)) في لله لا تفيد معني النفع والاستفادة، وانما معناها: ان هذا الامر هو من قبل الله ومن جهته الي الناس.

فالتكليف الإلهي يقترن دائماً بالخير، نظير قوله تعالى: كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسي أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ٥٦ وإذا كان الشيء خيراً فلا يكون بضرر أحد. لذلك نخلص إلي أن ((اللام)) و ((علي)) حين يكونان في مقابل بعضهما البعض، فإنّ التقابل علامة علي ان الامر أو الشيء يكون حكماً من أحد الطرفين، وجعلاً وواجباً علي الطرف الثاني، ولا يمكن ان يدل (التقابل) علي الضرر. فضيلة الحج علي سائر العبادات:

لا يبدو من ظاهر آيات القرآن الكريم، انّ ثمة عبادة غير الحج جاءت في صيغة لله علي الناس اذ لم نجد نظير هذا الاسلوب في عبادة مثل الصلاة والزكاة، وبالتالي لا يقال ((لله علي الناس إقامة الصلاة)) أو ((لله علي الناس إيتاء الزكاة)).

وهذا التمييز يعد في حد ذاته علامة علي خصوصية فريضة الحج وما تنطوي عليه من عظمة من بين سائر العبادات.

فعن الصلاة جاءنا الخطاب القرآني بصيغة وأقيموا الصلوة ٥٧ أما الحج فتميز وانفرد بصيغة: لله علي الناس. . . . ((الحج)) لغة.

الحج مصدر، وقد ذهب البعض الي انه اسم مصدر، ومعناه قصد بيت الله الحرام. ان ((حج البيت)) هو عبادة مألوفة منذ عصور قديمة؛ وبالذات منذ صر الخليل ابراهيم (عليه السلام) . وقد اعتادوا أن يعدوا السنين بالحج، وفي ذلك يقول نبي الله شعيب لموسي الكليم (عليهما السلام) : قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين علي أن تأجرني ثمانين حجج ٥٨.

ويقال في لغة الشهور ((ذو الحجة)) لوقوع ((حج البيت)) في هذا الشهر، ويعبر أربع حجج بدلاً من أربع سنوات وهكذا.

هناك في الآية: لله علي الناس حج البيت. . . الكثير مما ينبغي التأكيد عليه؛ من نظير:

١- يتضح من ظاهر آيات القرآن أن الحج هو العبادة الوحيدة، التي عبر عنها بصيغة لله علي الناس.

٢- لقد قُدّم ((لله)) علي المبتدأ المؤخر، لكي يفيد السياق معني الحصر، ويدل علي انّ العبادة (الحج) لله وحده.

٣- لقد بينت الآية الامر بصيغة البدل، والإبدال يفيد التكرار كما يقال، اذ لم يقل سبحانه: ((لله علي المستطيع. . .)) وإنما قال: لله علي الناس حج البيت من استطاع .

للتعبير بصيغة

بيان ((البعض من الكل)) فقالت: من استطاع اليه سبيلاً وهذا الاسلوب بمثابة التفصيل بعد الاجمال والتبيين بعد الإبهام؛ وهو يفيد التكرار والتأكيد. ولو جاءت الآية بصيغة ((لله حج البيت علي المستطيع)) أو ((لله علي المستطيع)) أو ((علي من استطاع اليه سبيلاً حج البيت)) لما أفهمت المعني أنف الذكر. المقصود من ((البيت)) هو أول بيت وضع للناس والاستطاعة تنقسم الي استطاعة عقلية واستطاعة شرعية، وكلاهما تتضمنهما الآية. فمن الناحية العقلية يستطيع كل انسان ((مستطيع)) ان يتشرف بالحج ((ولو متسكعاً)) وان كان الحج مستحباً بالنسبة اليه، ليس بواجب؛ وان لم يكن مستحباً فيحمل علي معني الزيارة ويدخل في المعني العام لقوله تعالي: مباركاً وهدياً للعالمين فهو مصدر هداية وبركة للجميع المستطيع وغير المستطيع، وحاجاً كان أو معتمراً؛ واجباً أداه أو ندباً. إلا ان الحج الواجب لا يجب الا علي المستطيع. وفي البحث الفقهي ثمة آراء؛ فهل تلزم الاستطاعة ((اليه)) فقط؛ أم ان الاستطاعة ((اليه)) و ((عنه)) كليهما لازمان؟ . الهوامش:

(١) آل عمران: ٩٦-٩٧.

(٢) آل عمران: ٩٥.

(٣،٤) إبراهيم: ٢٧.

(٤،٥) التوبة: ١٠٨.

(٦) التبيان ٥٣٥: ٢.

(٧) مجمع البيان ٤٧٧: ٢.

(٨) النور: ٣٦.

(٩) القمر: ٥٥.

(١٠) الحديد: ٣.

(١١) المائدة: ٩٧.

(١٢،١٣) إبراهيم: ٣٧.

(١٤) البقرة: ١٢٦.

(١٥) إبراهيم: ٣٥.

(١٦) العنكبوت: ٦٧.

(١٧) آل عمران: ٩٧.

(١٨) الحج: ٢٦.

(١٩،٢٠) الحج: ٢٧.

(٢١) البقرة: ١٢٧.

(٢٢،٢٣) المائدة: ٩٧.

(٢) الاسراء: ١.

(٢٤) البقرة: ٤٣.

(٢٥) البقرة: ٥٤، ١٨٤، ٢٧١.

(٢٦) مريم: ٣١.

(٢٧) مريم: ٥٨.

(٢٨) مريم: ٥٩.

- (٣١) البقرة: ١١٥.
- (٣٢) نور الثقلين ٣٦٧: ١.
- (٣٣) الحج: ٢٧.
- (٣٤) سبأ: ١٠.
- (٣٥) الانبياء: ٨٠.
- (٣٦) قريش: ٤.
- (٣٧) البقرة: ١٢٥.
- (٣٨) البقرة: ١٩٤.
- (٣٩) العنكبوت: ٦٧.
- (٤٠) الحج: ٢٥.
- (٤١) الانعام: ١٢٩.
- (٤٢) جواهر الكلام ٣٢٠: ٧.
- (٤٣) شرائع الاحكام: ١.
- (٤٤، ٤٥، ٤٦) البقرة: ١٤٤.
- (٤٧) الوسائل ٢٤٧: ٣.
- (٤٨) التفسير الكبير ١٤٥: ٨.
- (٤٩) التفسير الكبير ١٤٥: ٨.
- (٥٠) الزمر: ٢١.
- (٥١) التفسير الكبير ١٤٥: ٨.
- (٥٢) نهج البلاغة خطبة: ٣.
- (٥٣) قريش: ٤.
- (٥٤) العنكبوت: ٦٧.
- (٥٥) البقرة: ١٢٥.
- (٥٦) البقرة: ٢١٦.
- (٥٧) البقرة: ٤٣.
- (٥٨) القصص: ٢٧.
- (٥٩) جواهر الكلام ٢٧٣: ١٧.

